الحياة الصوفية السمحة وتحديات التطرف الديني

زواوي

IAIN Pekalongan Email : zawawi.abdulwahid@gmail.com

ملخص

إن قضية العنف والتطرف أخذت تؤرق مضاجع الشرق والغرب معاً، فأضحت من التحديات الكبيرة والخطيرة هذه الأيام، ولا شك أن التطرف لا يحارب بالبيانات، ولا باللقاءات الظرفية، ولا بالملتقيات، بل يحتاج الأمر إلى رؤية فكرية واضحة، وعمل مدروس يجيب عن الأسئلة التقليدية في أي خطة، والحياة الصوفية تتسم بالأخلاق والقيم النبيلة، وتقدم خدمة للدين والأمة والوطن عن طريق نشر العلم وإشاعة محاسن الأخلاق، والدعوة إلى الوحدة والتآخي، وعدم الانسياق وراء العصبية الطائفية أو المذهبية؛ والتي تدعو الى الفرقة والتشتت وذهاب الريح.

إن الصوفية سلاح إسلامى معتدل نرفعه فى وجه محاولات الغلو والتطرف المشوبة بالعناد الذى يستند إلى الجهل ويعتمد على الخرافة ولا يدرك الدلالة الحقيقية لصحيح الدين، فالمتصوفون يقدمون أنفسهم على أنهم صمام أمان المجتمعات في مواجهة التطرف وأهله لما يحملونه من قيم التسامح وتقبل الآخر، فإن الصوفية الإسلامية يمكن أن تساهم في مواجهة تحديات التعصب والأصولية وكبح جماح التطرف العنيف.

الكلمات المفتاحية : الصوفية، المعتدل، التطرف

مقدمة

التطرف الديني هو من أكبر الازمات التي واجهها المجتمع الإ سلامي حيث لا يمكن حصره بجهة معينة أو فئة معينة أو منطقة معينة أو دولة معينة ومن الملاحظ للعيان أن التطرف يتمدد داخل فئات متعددة في المجتمع لا تكون ظاهرة للفرد ولا يمكن معرفتها ومن اين تنبع، حيث ان الكشف عن التطرف وجذوره الذي يتجلى بالعنف والارهاب ومعرفة اسبابه هو موضوع الساعة اليوم وهو من اشد الموضوعات خطورة، حيث ان ما ابتلت به الامة الاسلامية اليوم هو الغلو والعنف والتطرف وهو ما اشد ما ابتلت به على مر العصور والازمان

وان قضية العنف والصراعات التي تؤدي الى هذه التحديات والكوارث ليس امراً نادر الحدوث لا يتوقع الفرد حدوثة ووقوعه في المجتمعات، بل ان التغيرات التي ظهرت على المجتمعات والصراعات الدامية والمنعطفات الكبرى كثيراً ما تقترن بأحداث وصراعات مدمرة ودامية بل تضرب بجذورها في اعماق التاريخ والناظر في اهل التطرف يجمعهم قاسم مشترك وتربط بينهم خصائص ويفرقون بأوصاف تكون مطردة فيهم. من خلال اجماعهم على ارتكاب افظع الجرائم باسم الدين، حيث ان التطرف وبواعثه ومشتقاته المتمثلة بالإرهاب والعنف لم يأت اعتباطاً ولم ينشأ جزافاً بل له اسبابه ودواعيه. ومعرفة هذه الاسباب غاية في الاهمية حيث ان معرفة الاسباب تحدد نوع العلاج فلا علاج الا بعد تشخيص ومعرفة السبب والاسباب فما اذن هذه الاسباب والبواعث التي ادت الى هذا الفكر الضال في المجتمع العراقي حصراً؟ ومن خلال ذلك سوف نتناول اولاً: مفاهيم الدراسة والتي تمثلت ب مفهوم التطرف، والدين، والتطرف الديني كونهما المفتاح الاساسي لدراستنا هذه وثانياً: الاثار الاجتماعية للتطرف الديني وثالثاً: مظاهر التطرف الديني، ورابعاً: قراء تحليلية للموضوع، واخيرا وليس اخراً تناولنا مجموعة من النتائج والتوصيات التي تخص الدراسة.

إن التصوف هو الجانب الروحي في الإسلام، والمدرسة التي تُعلِّمُ الإنسان كيف يتعامل مع الأكوان، فقد أرى الإنسان حلاوة الإسلام عبر القرون، فهو مفتاح عودة الأمة إلى النجاح، وهو طريق النصر، وفلسفة حياة لإسعاد النفس، يمتلك من المقومات ما يجعله قادرا على استئصال مكامن الشر.

إن الأمن الروحي هو نقطة الارتكاز التي تستند عليها جميع أنواع الأمن الأخرى التي ينشدها الإنسان، والتي ما هي سوى تمظهرات خارجية وواقعية لهذا الأمن، ولا يتأتى الأمن الروحي إلا بمعرفة الإنسان لنفسه، ومعرفة الاختلالات الذاتية ومحاولة معالجتها، مع التصالح مع الذات وتحقيق التواصل معها، وعبر هذا التصالح والتواصل الذاتيين يتحققان خارجيا.

فالتربية الروحية تتصدى لجوهر الإنسان ولبه، وتزكية النفس وإصلاحها، وترتقي بالنفس من أمارة بالسوء إلى نفس لوامة إلى نفس مطمئنة، فيصبح الإنسان بذلك متوازنا، متكاملا، فاعلا ونافعا، متواصلا، منفتحا على عصره، قادرا على إرساء قواعد السلم والسلام: إنه سلم لساني، أخلاقي، سلم في العلاقات، سلم في العواطف والقلوب؛ فالتصوف يساهم في إشاعة قيم المحبة والرحمة وحسن التعايش والتواصل مع الحضارات والأديان، فتنعم بوافر الأمن والأمان.

إن الداعي وراء اختيار موضوع ال تصوف هو إعادة الاعتبار للشأن الصوفي كثابت من ثوابت بلدنا من جهة، والأزمات والحروب والمآسي الإنسانية التي يعيشها اليوم العالم المعاصر من جهة أخرى، فقد جاء هذا الموضوع في وقته وحينه، لأن الحاجة ملحة في عصر طغت فيه المادة على الروح، وتقاذفت علينا الفتن من كل حدب وصوب، فالساحة إذا خلت من التصوف ملئت بالتطرف، ولا أمن حضاري بغير أمن روحي، ولا أمن روحي بغير أخلاق، ولا أخلاق بغير دين، لأن الدين في أسمى معانيه خلق، ولا دين إلا بالتكامل بين الروح والجسد، وبين العقل والقلب، وبين الدنيا والآخرة، ولا يكون ذلك إلا بالتكامل والتوازن.

تعريف التطرف

التطرف اصطلاحا هو الغلو في عقيدة أو فكر أو مذهب أو غيره، مما يختص به دين أو جماعة أو حزب. والتطرف في اللسان العربي مشتق من الطرف أي الناحية أو منتهى كل شيء، وشاع استخدام كلمة تطرف في العقد الماضي بمنطقتنا ترجمة للكلمة الإنجليزية Extremism، وتردد معها استخدام كلمة "الأصولية" ترجمة للكلمة الإنجليزية Fundamentalism.

والتطرف مصطلح يضاد مصطلح "الوسطية" الذي هو من الوسط الواقع بين طرفين كما يقول الأصفهاني في مفردات غريب القرآن، وهو يحمل في طياته معنى العدل، وفي القرآن : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } [1] أي أمة عدل. وإذا كان مصطلح التطرف يعني التشدد وتجاوز الحد، فإن مصطلح الوسطية يدل على العدل والسماحة، ولفظ السماحة في لسان العرب يطلق على سهولة التعامل فيما اعتاد الناس فيه المشادة كما يقول الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور عن معنى السماحة في كتابه : أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ...أنها وسط بين الشدة والتساهل، وجدير بالذكر إن ظاهرة التطرف لا تقتصر على مكان دون آخر ولا قطر دون قطر آخر إنها قديمة قدم الإنسانية بدأت مع بدايات التاريخ الإنساني، وبقيت إلى يومنا هذا ملازمة لظهور الأديان والعقائد والأنظمة والمذاهب حتى المصالح، فلكل حالة متطرفون ومعتدلون[2].

قال الإمام ابن القيم : إن أصل الخير والشر من قبل التفكر فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض[3] فأصل جميع أنواع التطرف من جهة الفكر، فيمكن تحديد التطرف الفكري بأنه المبالغة

([1]) البقرة : 143

([2]) الرواشدة، علاء زهير ، التطرف الأيديولوجي من وجهة نظر الشباب الأردني، دراسة سوسيولوجية للمظاهر والعوامل، (الرياض، مجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، العدد، 63 سنة 2015)، ص 90

([3]) الجوزية، ابن قيم، الفوائد (الدمام، دار ابن الجوزي، 1424هـ) ص 348

في التمسك فكرا، أو سلوكا، بجملة من الأفكار، قد تكون دينية عقائدية أو سياسية أو اقتصادية، أو أدبية، أو فنية[1].

وقد تكلم المعاصرون عن التطرف الديني على أنه التنطع في العبادات الشرعية أو مصادرة اجتهادات الآخرين في المسائل الاجتهادية أو تجاوز الحدود الشرعية في التعامل مع المخالف[2]. ولقد أخرج مسلم في صحيحه عن ابن مسعود ﷺ قول النبي ﷺ " هلك المتنطعون " قالها ثلاثا. وأخرج الإمام أحمد والنسائي وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « وإياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين » وهو نهي عام عن جميع الغلو في الاعتقادات، والأقوال والأعمال.

ومن صور التنطع في العبادات الشرعية ما قام به بعض الحجاج أثناء رمي الجمار من تعمد بعضهم الرمي بالأحذية والبصق على موضع الرمي والتفوه ببعض العبارات المنكرة وغير ذلك من صور الغلو التي لا تتفق مع جلال هذه المواقف فضلا عما تتضمنه من الإيذاء لبقية إخوانه من الحجاج.

أما مصادرة اجتهادات الآخرين في المسائل الاجتهادية فهي التعصب للرأي تعصبا لا يعترف معه للآخرين بوجود، فقوله هو الصواب الذي لا يحتمل الخطأ وقول غيره هو الخطأ الذي لا يحتمل الصواب، وهو مع الناس كالمشرق مع المغرب لا تقترب من أحدهما إلا بمقدار ما تتباعد من الآخر، من خالفه فهو جاهل مبتدع ومن خالفه في السلوك فهو فاسق عاص، فهو الناطق الرسمي باسم الحق، المتحدث الرسمي بلسان الإسلام، لا يقيم وزنا لاجتهاد مخالف ولو أوفي أصحابه على الغاية في العلم والديانة وعرفوا في تاريخ الأمة بالإمامة في الدين[3].

([1]) ملك، بدر محمد، و الكندري، لطيفة حسين، دور المعلم في وقاية الناشئة من التطرف الفكري، (القاهرة، مجلة التربية جامعة الأزهر، العدد 142، ج 1، 2009)، ص 16

([2]) الصاوي، صلاح، التطرف الديني الرأي الآخر، ط. أولى (القاهرة، الآفاق الدولية للإعلام، 1993)، ص 10

([3]) الصاوي، التطرف الديني الرأي الآخر، ص 11

أما تجاوز الحدود الشرعية في الإنكار على المخالف فهو ألا يفرق بين مجمع عليه وبين مختلف فيه، ولا يراعي درجات الاحتساب ولا يعتبر بالمآلات ولا يوازن بين المصالح والمفاسد المترتبة على هذا الإنكار ولا يضع اعتبارا لاختلاف الزمان والمكان والأحوال.

مظاهر التطرف الديني

إن للتطرف الديني مظاهر عدة يتسم بها، ومن أهم تلك المظاهر ما يلي :[1].

1- سوء الفهم عن الدين خاصة في الأمور الاجتهادية ، حيث يجعل المتطرف الأمور الاجتهادية أموراً مقطوعة ليس فيها إلا قول واحد وهو قوله ورأيه ويرى المتطرف نفسه هو وحده على حق وما عداه على الضلال.

2- ومن دلائل التطرف هي التعصب للرأي تعصباً لا يعترف معه للآخرين بوجود ، وجمود الشخص على فهمه جموداً لا يسمح له برؤية واضحة لمصالح الخلق، حيث إنه يجيز لنفسه أن يجتهد في أعوص المسائل وأغمض القضايا ويفتي فيها ما يلوح له من رأي وافق فيه أو خالف.

3- ومن أخطر مظاهر التطرف انتشاراً هي الفكر التكفيري في المجتمعات المسلمة حيث إن أصحاب هذا الفكر يسرفون في تضليل الناس وتكفيرهم ويستبيحون دمائهم وأموالهم.

4- العنف في التعامل والخشونة في الأسلوب دون التعامل بالحسنى والحوار والاعتراف بالرأي الآخر.

من خلال تلك المظاهر تبين أن سوء الظن بالآخرين والنظرة التشاؤمية التي يتبناها المتطرفون هي من أهم سماتهم حيث إن هؤلاء المتطرفين لا يروا الاعمال الحسنة لهؤلاء الاشخاص ويقومون بتضخم سيئاتهم فالأصل من ذلك كله هو الاتهام والإدانة وقد يكون مصدر ذلك كله هو الثقة الزائدة بالنفس. التي تؤدي في مراحل لاحقة

([1]) الخواجة، محمد ياسر، التطرف الديني ومظاهره الفكرية والسلوكية، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والابحاث، قسم الدين وقضايا المجتمع، الرباط ، المملكة المغربية

بالمتطرف الى ازدراء الغير. حيث يبلغ مداه حتى يسقط في عصمة الاخرين ويقوم بسلب اموالهم ويستبيح دماؤهم وهو في كل ثقة يدعى بانهم متهمون بالخروج عن الدين وهو الذي يعمل على ضياع الدين وانهياره بأفعاله الشنيعة تلك، حيث تصل دائرة التطرف مداها وامتدادها في حكم الأقلية على الأكثرية بالكفر والإلحاد.

تعريف التصوف

للتصوف تعاريف كثيرة بلغت الألفين ، أحسنها وأجمعها هذان التعريفان : قال ابن عجيبة رحمه الله : التصوف : صدق التوجه إلى الله بما يرضاه ومن حيث يرضاه . وقال أيضاً : التصوف علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البو اطن من الرزائل وتحليتها بأنواع الفضائل فأوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة[1].

ولقد كادت كتب التصوف تجمع على أنه : صدق التوجه المشروط برضى الله سبحانه وتعالى. وزبدة القول : والحق أن التصوف تفسير " لمقام الإحسان " الذي هو مقام الشهود والعيان، ولا مشاحة في المصطلحات وإنما العبرة للحقيقة والجوهر، فإذا كان إصلاح الظاهر واجباً فإصلاح الباطن أوجب لأنه موضع نظر الله عز وجل، وإذا كان إصلاح باطن العبد وسريرته وقلبه جوهر الدين فذلك هو التصوف، ولا يزيد أبداً عن كونه إصلاحاً للقلوب.

فالصوفية هم –كما قال الإمام الغزالي – السالكون لطريق الله تعالى حاصة، ويحدد الإمام الغزالي معالم طريقتهم بقوله : أول شروطها : تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها : استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها : الفناء بالكلية في الله تعالى[2].

([1]) ابن عجيبة، عبد الله بن أحمد، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، (الدار البيضاء، مركز التراث الثقافي المغربي، 1224هـ) ص 25

([2]) موسوعة التصوف الإسلامي، (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف المصرية) ص 23

نشأة التصوف

إن التصوف قد نشأ نشأة إسلامية صرفة، فالقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة فيهما من الاشارات العديدة والتوجيهات الكثيرة ما ساعد على تنمية هذا الشعور الفطري بين الكثير من المسلمين، ويؤيد هذا الرأي عن نشوء التصوف ما ذكره العلامة القشيري حيث يقول الإمام أبو القاسم عبد الكريم القشيري في رسالته الرسالة القشيرية: اعلموا رحمكم الله تعالى أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتسمَّ أفضلهم في عصرهم بتسمية عَلَم سوى صحبة رسول الله ﷺ إذ لا فضيلة فوقها فقيل لهم : الصحابة، ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة : التابعين، ورأوا في ذلك أشرف سمة، ثم قيل لمن بعدهم : أتباع التابعين، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين : الزهاد والعباد، ثم ظهرت البد ع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم " الصوف" واشتهر هذا الأسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة[1].

وهكذا يتبين لنا أن التصوف نشأ مع الإسلام وولد معه، لأنه جزء منه وليس بشيء زائد عليه بل هو التطبيق العملي والجانب الروحي منه، وهو لا يمت بصلة إلى ما يقوله أعداء الإسلام عنه أنه مأخوذ عن الأمم الأخرى، بل ما هو في واقع الأمر إلا حال النبي ﷺ وآله والقرون الثلاثة الأولى المشهود لها بالخيرية، وما الصوفي إلا المسلم الذي يكون في حاله مع الله ومع الناس أقرب شئ إلى ما كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام وصفوة أصحابه.

مكارم الأخلاق عند الصوفية

إن الصوفي الصادق يتأسى بمولانا رسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، وقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت كلمتها الجامعة "كان خلقه القرآن". ومعلوم أن القرآن الكريم يدعو إلى كل خلق سني ونهى

(1) القشيري، أبو القاسم عبد الكريم، الرسالة القشيرية، (القاهرة: دار المعارف، بدون تاريخ)، 34/1

عن كل خلق دني، وقد بلغ مولانا رسول الله ﷺ في مستوى خلقه الغاية التي أثنى عليها رب العزة في قوله تعالى : وإنك لعلى خلق عظيم"، وفي صيغة الآية من التأكيد ما فيها ومن أصدق من الله قيلا.

قال العلامة رفاعة رافع الطهطاوي : اتفقت الأخلاق والعوائد والشرائع والأحكام على أن مكارم الأخلاق منحصرة في قوله ﷺ "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، وأن هذا الحديث قاعدة عظيمة في الدين لأن الرجل الصالح المستقيم الحال لا يقتصر على الكف عن فعل الشر بل يرى أن الحقوق الواجبة عليه فعل الخير والمعروف، فمن لم يضع المعروف في موضعه مع التمكن منه لا يعد صالحا فالاستقامة تنهى عن الشر والصلاح يأمر بالخير[1].

إن الدين عقيدة وأحكام وتطبيق، والتطبيق شكل وموضوع وقد يتم تطبيق العبادات شكلا بالعادة فلا يثمر في قلب العابد ثمرة العبادة، ومن هنا وجب أن تقوم التربية الروحية بين المسلمين ليأخذ المسلم دينه علما وعملا وحالا، من ورثة الأخلاق النبوية وهم الذين اصطلح على تسميتهم السادة الصوفية وهم الذين نالوا علوم الدراسة وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة. حين كان أسلافنا متحلين بمكارم الأخلاق كان للإسلام بهم أكبر دعاية عملية فدخل الأعاجم في الإسلام عن إعجاب به، وبرز من هؤلاء الأعاجم أجلاء في علوم الدين والتربية الروحية كما هو معلوم. لذا فنحن نحتاج لبث الإسلام الصحيح في نفوس أهله قبل أن ندعو إليه غيرهم، فإن رأي غيرهم منا مسلكا مشرفا أغنانا الحال عن المقال، وحال واحد في ألف خير من كلام ألف في واحد.

ونحن مأمورون من الله أن نكون شهداء لله ولو على أنفسنا ولا شبهة أننا انحرفنا في زماننا هذا عن خلق المسلمين الأوائل فتعادينا وتحاسدنا وبخلنا، وفرطنا في واجباتنا الخاصة والعامة واعتدى بعضنا على بعض ففشت فينا الغيبة والنميمة، ولو كانت عبادتنا حقة لأثرت في قرارة نفوسنا وأصلحتها، والعبادات ليست مقصودة لذاتها وإنما هي وسيلة لتهذيب النفوس وإصلاح القلوب وعلاج النقائص، والدين منذ قام لم تتغير أحكامه إنما تغيرت

([1]) الملطاوي، حسن كامل، الصوفية في إلهامهم، (القاهرة: وزارة الأوقاف المصرية، 2011)، 94/1

نفوسنا لأننا لم نأخذه بقوة وصدق بل أخذناه شكلا لا روحا، وفاتنا أن الله غني عنا وعن طاعتنا، ولكن تعبدنا بالطاعات لصلاح المجتمع وليسعد الناس فيما بينهم على أساس الأخوة والتعاون فلا يقوم بينهم التنافر أو التخاذل في أفرادهم أو طوائفهم[1].

التصوف والتسامح

لقد باتت الحاجة ملحة وصار الأمر ضروريا التوسل بالتصوف ومبادئه وأخلاقياته في علاج الإشكاليات الراهنة، وتقديم الحلول الناجعة لمعضلات العصر، انطلاقا من اعتبار التصوف ليس مجرد حالة معرفية وجدانية فحسب، بل هو تجربة وخبرة إنسانية وحمولة تراثية، تتميز بالصفاء الروحي والقيم الأخلاقية التي يمكن الاستفادة منها على مختلف الأصعدة، ومن الضروري إعادة التذكير بأهمية التصوف الوسطي المعتدل، حيث يجب إبراز حاجة الأمة إليه لتعزيز خصوصياتها وهويتها، فهو الكفيل بترميم التصدعات، وترشيد السلوكات، وتصحيح التصورات، والانفتاح والتسامح، ونبذ التطرف والعنف والتعصب.

إن العالم الإسلامي لا يزال بعيدا عن تلك القيم السمحة والأخلاق العالية والإرادة الخلاقة الوثابة وذلك الأفق الرحب الذي يجمع بين عالم الغيب والشهادة، بين عالم الإيمان والإحسان، بين عالم الأسباب والمسببات.

أمر رسولنا الكريم ﷺ أن يسمح ويتسامح حتى يسمح الله معه فعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : اسمح يسمح لك. كما بين النبي ﷺ أن السماحة إذا غابت من المسلمين فإن الموت أفضل لهم من الحياة، وإذا انتشرت السماحة بينهم فإن الحياة أفضل لهم، ونستطيع أن نقول : إن النبي ﷺ وضع دستور الإصلاح الداخلي في الدولة المسلمة قبل أن ينادي به هؤلاء الذين لا يعرفون التسامح ولا السماحة ويسعون في الأرض فسادا، وإنما ينادون به ذريعة لإهلاك البلاد والعباد والله لا يحب الفساد.

([1]) الملطاوي، الصوفية في إلهامهم، 99/1

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا ». ولم يقتصر النبي ﷺ في دعوته للأمة بالتسامح على الإرشاد بالكلام فحسب بل ضرب النبي ﷺ أروع أمثلة التسامح والحلم، ليعلم أصحابه والمؤمنين من بعده والعالم بأسره كيف يتسامح الإنسان مع أخيه الإنسان، فعن أنس بن مالك ﷺ قال : كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال : مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء.

قال الإمام النووي : " فيه احتمال الجاهلين والإعراض عن مقابلتهم ودفع السيئة بالحسنة وإعطاء من يتألف قلبه، والعفو عن مرتكب كبيرة لا حد فيها بجهله، وإباحة الضحك عند الأمور التي يتعجب منها في العادة، وفيه كمال خلق رسول الله ﷺ وحلمه وصفحه الجميل ". من المفهوم أن ما سبق من التوجيهات والإرشادات النبوية الشريفة تشمل كل فئات المجتمع وكذلك تشمل كل الناس بل ثبت أنها تشمل الحيوانات كذلك[1].

إن التسامح هيئة في النفس راسخة كما يقول الإمام الغزالي تصدر الأفعال عنها من غير حاجة إلى فكر وروية فإن وقع التكلف في فعل الفضائل انتفت صفة الرسوخ، ولم يربط الإسلام الفضيلة بمعيار عقلي مجرد تتحكم فيه العواطف، وإنما ربط ذلك بحكم الشرع والعقل معا، دفعا لسيطرة الغرائز على قابليات النفوس واستعداداتها، ولا يتحقق التسامح إلا عندما تصفو القلوب مما يعلق بها من أكدار المشاحنات والمزاحمات والتنافسات والتسامح ليس صفة متكلفة وإنما هو شعور قلبي تنتجه الطمأنينة، فمن اطمأن قلبه بحب الله ورسوله أحب الخلق وسعى في

(1) الجمعة، علي، سمات العصر، رؤية مهمّ (الجيزة: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية)، ص 295

إسعادهم، وصفاء القلوب يحتاج إلى تزكية وتربية وتعهد على أداء جقوق الله، وأهم معالم الصفاء القلبي الأدب مع الله والتزام الأدب مع الخلق، والتماس العذر لهم فيما هم فيه، والإحسان إليهم بالكلمة الطيبة والنصح الصادق[1].

إن الفكر الصوفي ومعتقداته يعتبر من العناصر المهمة جدا في مواصلة توسيع فكر السامح وثقافة التعايش السلمي. فالثقافة الصوفية تعتبر ثروة دينية هائلة استطاعة في كثير من الأحيان أن تلين بعض الصعوبات التي نبعت من التجربة التاريخية القاسية للأديان، وأن توصل رسالتها إلى جميع مستويات المجتمع، فهي بالتالي تستطيع أن تضع بصماتها في كثير من المشروعات العالمية. هذه الثروة الصوفية التي نعتبرها منبع الحياة للبشرية هي من حيث النية والفكر تعتمد على أسس عدم التجريح والتجرح، ومن حيث التجربة والواقع أتت بمفهوم احترام المخلوق بسبب الحب الخالص للخالق. وعلينا أن نستفيد في موضوع التسامح وثقافة التعايش السلمي خصوصا من شخصيات معروفة في التاريخ مثل محي الدين بن عربي، والحاكم الترمذي، والإمام الرباني، وكذلك أحمد يسوي ومولانا جلال الدين الرومي، ويونس أمره، الحاج بكداش ولي، إلخ[2].

ولا شك أن مبادئ التصوف نقلها إلينا رجال عرفوا الله سبحانه وتعالى حق المعرفة، والتزموا بالإسلام في وسطيته واعتداله، وانفتاحه على الآخر، دون تزمت ولا تشدد، ولقّنوه وربّوا عليه أجيالا حملت مشعل الصلاح والهداية، والتربية على الأخلاق الأصيلة والرفيعة التي نادى بها ديننا الحنيف، وخير ما يستدل به على هذه النوعية من الرجال: مجدد التصوف بالمغرب سيدي أبي الحسن الشاذلي.

فهو صوفي من الطراز الأول، طرازِ أئمة التصوف الإسلامي كالإمام أبي القاسم الجنيد وغيره ممن سلكوا سبيل العلم والبصيرة، فكان لهم الميراث النفيس من رسول الله ﷺ: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾، فهو لم يسع إلى مجد شخصي أو سياسي، حيث لم يكن يرغب في الخروج من عزلته التي

([1]) النبهان، محمد فاروق، البعد الإنساني في منهجية التسامح الإسلامي، (ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر العام السادس عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بالقاهرة : وزارة الأوقاف المصرية، 2004)، ص 751

([2]) أغلو، علي بارداق، الحوار والتسامح، (ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر العام السادس عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بالقاهرة : وزارة الأوقاف المصرية، 2004)، ص 215

كان سعيدا فيها بعبادة ربه، إلى أن أتاه الإذن الرباني، بأن يخرج للناس لينتفعوا به، وهذا شأن أولياء الله، ليس لهم اختيار مع اختيار الله، فقد انطوى اختيارهم في اختياره سبحانه وتعالى"[1].

كانت شخصيته تمثل الشخصية الإسلامية المعتدلة التي لا تتحرج عن أكل الطيبات وشرب البارد، ولبس الحسن من الثياب على أن تكون من كسب حلال لا شبهة فيه، فكان يعمل في الحرث والغرس والحصاد وتربية الماشية، حيث يأخذ ما يحتاج إليه ثم يتصدق بالباقي على الفقراء والمحتاجين.

وكان ﷺ يقول لتلميذه أبي العباس المرسي: "اعرف الله وكن كيف شئت، يا بنيّ برد الماء، فإنك إذا شربت الماء الساخن، فقلت الحمد لله تقولها بكزازة، وإذا شربت الماء البارد، فقلت الحمد لله استجاب كل عضو فيك بالحمد لله. ودخل عليه مرة فقير وعليه لباس من شعر فلما فرغ الشيخ من كلامه، دنا منه وأمسك ملبسه وقال: يا سيدي ما عُبد الله بمثل هذا اللباس الفاخر الذي عليك، فأمسك الشيخ ملبسه فوجد فيه خشونة، فقال: ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذي عليك، لباسي يقول: أنا غني عنكم فلا تعطوني، ولباسك يقول: أنا فقير إليكم فاعطوني[2].

كان ﷺ يدعو إلى طريق الله تعالى بصبر ويقين وحكمة، وبتوسط وجمال واعتدال، دون زيغ أو خروج عن الشرع، أو هروب من التكاليف، "ومن أتاه يسأله النصيحة يوضح له أنه لا يملك القدرة على فرض شيء أو منع شيء، لأنه ليس برسول، ولأن الفرائض معلومة والمعاصي مشهورة، فليس على السائل إلا التزام جانب الشرع، وحارب كل من ادعى أنه وصل إلى مقام يُسْقط عنه التكاليف الشرعية، مبينا أن الأنبياء والمرسلين، وهم أقرب البشر إلى الله سبحانه لم ترتفع عنهم التكاليف"[3].

([1]) ابن الصباغ، محمد بن أبي القاسم الحميري، درة الأسرار وتحفة الأبرار في مناقب وأقوال الإمام أبي الحسن الشاذلي وتلميذه أبي العباس المرسي، تحقيق: أنس عطية الفقي، (القاهرة : مركز جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا للتصميم العلمي والنشر، 2010)، ص 13–14

([2]) ابن عطاء الله السكندري، تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم، لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن، (بيروت : دار الكتب العلمية، 2005)، 134.

([3]) محمد أحمد درنيقة، ابن الطريقة الشاذلية وأعلامها، (طرابلس، لبنان: المؤسسة الحديثة للكتاب 2009)، ص 11

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: الطريق القصد إلى الله تعالى أربعة أشياء، فمن جازهن كلهن فهو من الصديقين المحققين، ومن جاز منهن ثلاثا فهو من أولياء الله المقربين، ومن جاز منهن اثنتين فهو من الشهداء الموقنين، ومن جاز منهن واحدة فهو من عباد الله الصالحين:

أولها: الذكر، وبساطه العمل الصالح، وثمرته النور. الثاني: التفكر، وبساطه الصبر، وثمرته العلم. الثالث: الفقر، وبساطه الشكر، وثمرته المزيد منه. الرابع: الحب، وبساطه بغض الدنيا وأهلها، وثمرته الوصلة للمحبوب [1].

جمع الإمام الشاذلي في طريقته بين العلم والعمل، والقلب والعقل، والروح والجسد، في اعتدال وتناسق وتناغم بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، وكان ينصح بالتوسط في الأمور اعتمادا على قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾، ويعلن لمريديه قائلا: "لا تسرف بترك الدنيا فتغشاك ظلمتها، أو تنحل أعضاؤك لها، فترجع لمعانقتها بعد الخروج منها بالهمة، أو بالفكرة، أو بالإرادة، أو بالحركة"[2].

وما بلغ الإمام الشاذلي هذا المقام ولا حاز هذه المنزلة في طريق التربية الروحية إلا لكونه شكّل مدرسة للتصوف المعتدل، ذلك التصوف الذي يستقي مبادئه من كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام، والتخلق بأخلاق الإسلام، بعد التسلح بعلوم الشريعة، فكان مسلكه الصوفي صرخة متجددة في طريق الله تعالى، غيرت الأفكار، وصححت المفاهيم، وأعادتها إلى أصولها، "لهذا لم يكن غريبا أن يقبل عليه الناس من كل حدب وصوب، يغترفون من علمه، ويتأدبون بآدابه، ويستمعون إلى دروسه ومواعظه وتعاليمه، ويلتمسون منه الدعاء والبركة، فاتسعت حلقات دروسه، وكثر أتباعه ومريدوه، فكان إذا جلس للدرس والوعظ تحلقوا حوله بالعشرات، وإذا سار أو انتقل

([1]) سيدي أبي الحسن الشاذلي، رسالة الأمين في الوصول لرب العالمين، يليه الوصايا، لتحقيق وتخريج وتعليق: أحمد فريد المزيدي، (القاهرة، دار الحقيقة للبحث العلمي، 2008)، ص 9

([2]) الفاسي، أبو علي الحسن بن محمد بن قاسم الكوهن، طبقات الشاذلية الكبرى المسمى جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية، وضع حواشيه: مرسي محمد علي، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2005)، ص 33.

ساروا في ركابه بالمئات. وما مسلك الإمام الشاذلي رحمة الله عليه إلا خير مثال على وسطية وجمال واعتدال التصوف"[1].

وقد كان للتصوف كما تمثله شيوخ الطرق الصوفية الأثرُ البالغ في تمتين الروابط الروحية، بين جميع المكونات الثقافية والاجتماعية والقَبَلِيَّةِ للمجتمع الصوفي، تحت لواء واحد، هو لواء المحبة إذِ المحبة هي غاية التربية الروحية، والسلوك الصوفي، وذلك بالسير بالمريد عبر "مقامات" التربية، و"أحوال" التزكية؛ حتى يصل إلى تحقيق حُلَّةِ "المحبة" في نفسه؛ خُلُقاً تعبديا أصيلا صادقا، يمتد في سلوكه وطبيعته إلى سائر المجالات بعد؛ بما فيها المجال الاجتماعي، والسياسي، والثقافي بما هي علاقات، وتصورات، ومشاعر أيضا! لأن المحبة لا تَلْزَمُ في الوجدان الروحي حدا معينا، بل تفيض مواجيدها في السلوك العام للإنسان. وهذا سر القوة في التربية الصوفية، مما لا تجده في غيرها[2].

التطبيق العملي بإندونيسيا

كما أن الصوفية بإندونيسيا تتمتع بقبول اجتماعى واسع بين مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية والاقتصادية والعمرية حيث يدور منهجها حول تهذيب النفس والسمو بها لتحقيق مراد الله من حيث العبادة والتزكية والعمران ويدور منهجها أيضا حول مفاهيم الإصلاح، والمصلحة، والعرف الاجتماعى، وتحقيق منافع الناس.

التصوف في إندونيسيا يمكن أن يساهم إسهاماً يذكر في محاربة التطرف، لسبب عملي وهو أن التصوف في إندونيسيا لم يقتصر على مرحلة الطريقة فقط، التي هي علاقة روحية بين المريد والشيخ فحسب، وإنما يتعدى إلى تكوين مؤسسة اجتماعية كبيرة قادرة على التأثير في المجتمع والتعامل مع جميع مكوناته وذلك مثل جمعية نهضة

([1]) الشيال، جمال الدين، أبو الحسن الشاذلي، (الرباط: مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العددان الثامن والتاسع، ذو الحجة. محرم 1383هـ / مايو – يونيه 1963م)، ص: 15.

([2]) أبي عبد الرحمن السلمي، المقدمة في التصوف، ط. أولى (بيروت: دار الجيل، 1999)، ص 28

العلماء حيث تمتلك هذه الجمعية عددا كبيرا من المعاهد الإسلامية بما فيها من مدارس للتعليم، وهيئات خيرية، ومؤسسات إعلامية[1].

إن التصوف الذي يتسم بالوسطية والاعتدال في مشربه الفكري وتجاربه الروحية والأدوار التي تلعبها المؤسسات التي تمثله، لا يمكن اعتباره مجرد حالة معرفية وجدانية وحسب، بل هو تجربة وخبرة إنسانية وحمولة تراثية، تتميز بالصفاء الروحي والقيم الأخلاقية التي ترقى إلى قيمة المواطنة الفاعلة، يمكن الاستفادة منها على مختلف الأصعدة وتوظيفها لوضع تصور صحيح لمتحولات الواقع الإنساني مع القدرة على استيعاب تحديات الزمان الذي يعيشه إنسان العصر بمختلف مشاكله واختلالاته.

ومن آثار الوسطية التي يتسم بها المجتمع الإندونيسي تأسيس هيئة التعايش بين الأديان من قبل وزارة الشؤون الدينية حيث يتم تمثيل جميع الأديان الستة المعترف رسميا في إدارة الوزارة لأجل تحقيق أسس التعايش السلمي بين الأديان، وذلك يشتمل على التعايش بين معتنقي الدين الواحد، والتعايش بين معتنقي الأديان المختلفة، والتعايش بين أصحاب الأديان والحكومة[2].

كما قام الصوفية بإندونيسيا بتأسيس مجالس الذكر والعلم لأجل تربية الأمة الإسلامية، ومن خلالها أكدوا على أهمية توحيد صفوف المسلمين كما قاموا بتصحيح المفاهيم الخاطئة، وإحياء حب الوطن والحفاظ على وحدة الوطن، والاحترام لمعتقدات الأخرين.

النتيجة والتوصية

إن التصوف ضرورة إنسانية، وصحوة فاعلة، ويقظة دائمة تدعو إلى التوافق بين المادة والروح، حتى تتجسد الصوفية بمعناها الحقيقي، وتقوم بتمتين علاقة الإنسان بربه وتسهم في إيجاد روح ناهضة بالحيوية، ورؤية

([1]) بحسب تقرير اللجنة التابعة لوزارة الشؤون الدينية الإندونيسية، بلغ عدد المعاهد الإسلامية المنتشرة في جميع أنحاء البلاد ما يقرب من سبعة وعشرين آلاف، ثلاثين ومائتين معهد ديني وتم إجراء التقرير سنة 2011–2012، (الموقع الرسمي للوزارة www.pendis.kemenag.go.id

([2]) المنور، السيد عقيل بن حسين، التسامح الإسلامي بين النظرية والتطبيق، (ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر العام السادس عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بالقاهرة : وزارة الأوقاف المصرية، 2004)، ص 180

فاعلة تنطلق من المفاهيم الأصيلة للإسلام. إن الصوفية تُصلح ولا تُفسد، وتُوحد ولا تُفرق، وتُوجه الناس إلى الإخلاص لله تعالى في كل أعمالها، وتعمل على تحقيق العدل، وتنشئة الأجيال على طاعة الله، وتُجسّد الحب في الله بين الناس، وترسخ التقوى في النفوس، للتحلي بالعفاف والحياء والسعي إلى الخيرات.

إن التصوف يوثق ويرسخ قيم الهوية الوطنية، وثقافة التعايش ومحبة الآخر والتسامح والحوار، ويعمل على تنمية روح الانتماء للوطن، والمساهمة في كل ما من شأنه المحافظة على مكتسباته واستقراره ووحدته الترابية، نحن اليوم في أمس الحاجة إلى هذا الاهتمام، والتعرفِ إلى فضائل التصوف ومزاياه، والاستمداد من الطاقة الإيمانية والأسرار الربانية الكامنة في المبادئ الصوفية، لعلاج ما آلت إليه أحوال المسلمين أفرادا وجماعات من فتور في المبادئ الخالدة، واغترار بالتيارات الفكرية المادية، واندفاع وراء سرابها الكاذب وبريقها الخادع، ووقوع في أشراك الخلاف والنزاع والصراع، ومهاوي الفرقة والشتات والإعراض من الاعتصام بحبل الله المتين.

وإنه من الضروري إعادة التذكير بأهمية التصوف الوسطي المعتدل، والحاجة الملحة إليه في عصرنا، حيث يجب إبراز حاجة الأمة إليه لتعزيز خصوصياتها وهويتها، فهو الكفيل بترميم التصدعات، حيث يعمل على ترشيد السلوكات وتصحيح التصورات والانفتاح والتسامح ونبذ التطرف والعنف والتعصب.

التوصيات

- إدراج مادة التصوف في المقررات الدراسية بالمؤسسات التعليمية
- توطيد التعاون والتنسيق بين أهل التصوف عبر العالم.
- الإكثار من اللقاءات العلمية والمؤتمرات في موضوع التصوف: ماهيته ودوره في سلوك المجتمع
- القيام بطبع أعمال الملتقيات العلمية الخاصة بالتصوف، ونشرها تعميما للفائدة.

المصادر والمراجع

ابن عجيبة، عبد الله بن أحمد، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، الدار البيضاء، مركز التراث الثقافي المغربي، 1224هـ

ابن الصباغ، مُحَمَّد بن أبي القاسم الحميري، درة الأسرار وتحفة الأبرار في مناقب وأقوال الإمام أبي الحسن الشاذلي وتلميذه أبي العباس المرسي، تحقيق: أنس عطية الفقي، القاهرة : مركز جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا للتصميم العلمي والنشر، 2010

ابن عطاء الله السكندري، تاج الدين أحمد بن مُحَمَّد بن عبد الكريم، لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن، بيروت : دار الكتب العلمية، 2005

أبي عبد الرحمن السلمي، المقدمة في التصوف، ط. أولى، بيروت: دار الجيل، 1999

أغلو، علي بارداق، الحوار والتسامح، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر العام السادس عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بالقاهرة : وزارة الأوقاف المصرية، 2004

الجوزية، ابن قيم، الفوائد، الدمام، دار ابن الجوزي، 1424هـ

الجمعة، علي، سمات العصر، رؤية مهتم، الجيزة: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية

الخواجة، مُحَمَّد ياسر، التطرف الديني ومظاهره الفكرية والسلوكية، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والابحاث، قسم الدين وقضايا المجتمع، الرباط ، المملكة المغربية

الرواشدة، علاء زهير ، التطرف الأيديولوجي من وجهة نظر الشباب الأردني، دراسة سوسيولوجية للمظاهر والعوامل، الرياض، مجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، العدد، 63 سنة 2015

سيدي أبي الحسن الشاذلي، رسالة الأمين في الوصول لرب العالمين، يليه الوصايا، لتحقيق وتخريج وتعليق: أحمد فريد المزيدي، القاهرة: دار الحقيقة للبحث العلمي، 2008

الفاسي، أبو علي الحسن بن مُحَّد بن قاسم الكوهن، طبقات الشاذلية الكبرى المسمى جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية، وضع حواشيه: مرسي مُحَّد علي، ببيروت: دار الكتب العلمية، 2005

الشيال، جمال الدين، أبو الحسن الشاذلي، الرباط: مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العددان الثامن والتاسع، 1963م

الصاوي، صلاح، التطرف الديني الرأي الآخر، ط. أولى، القاهرة: الآفاق الدولية للإعلام، 1993

القشيري، أبو القاسم عبد الكريم، الرسالة القشيرية، القاهرة: دار المعارف، بدون تاريخ

مُحَّد أحمد درنيقة، ابن الطريقة الشاذلية وأعلامها، طرابلس، لبنان: المؤسسة الحديثة للكتاب 2009

ملك، بدر مُحَّد، و الكندري، لطيفة حسين، دور المعلم في وقاية الناشئة من التطرف الفكري، القاهرة، مجلة التربية جامعة الأزهر، العدد 142، ج 1، 2009.

المنور، السيد عقيل بن حسين، التسامح الإسلامي بين النظرية والتطبيق، (ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر العام السادس عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بالقاهرة : وزارة الأوقاف المصرية، 2004)

موسوعة التصوف الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف المصرية

الملطاوي، حسن كامل، الصوفية في إلهامهم، القاهرة: وزارة الأوقاف المصرية، 2011

النبهان، مُحَّد فاروق، البعد الإنساني في منهجية التسامح الإسلامي، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر العام السادس عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بالقاهرة : وزارة الأوقاف المصرية، 2004